جهاد حزب الله الإجتماعي: المقاومة في نموذج مؤسسة غير ربحية

بقلم شون تيريزا فلانيغان، منى عبد الصمد
فصلية سياسات الشرق الأوسط

يسمع سائق تاكسي الأخبار بأن التلفزيون المشغل من قبل حزب الله حيث يعمل إبنه وكنته قد قُصف لتوه بواسطة الطائرات الحربية الإسرائيلية. فضاحية بيروت الجنوبية يتم ضربها بقوة رداً على خطف جنديين إسرائيليين من قبل حزب الله في تموز 2006. وفي حين أن الرأي العام حيال عملية خطف حزب الله منقسماً، فإن معظم الناس متفقون على أن لبنان ما كان ليتعرض لهجوم لولا فعل حزب الله. إذ من المرجح تأثر كل لبنان بسبب تدمير إسرائيل للبنى التحتية، هرب السواح ورأس المال، والإقتصاد المتداعي الذي سيعقب الصراع. وبالرغم من هذه المعرفة، وبرغم إعتقاده بأن إبنه وكنته لا بد وأنهما توفيا، فقد رد السائق عند سؤاله إن كان لا يزال يدعم حزب الله بـ " نعم. ليس هناك من طريقة أخرى." فما الذي يفسر قاعدة الدعم اللا متذبذبة لحزب الله؟
بإستخدام الدليل الإختباري العملي خلال البحث الميداني في لبنان، تسعى هذه المقالة لإكتشاف ما الذي يدفع حزب الله الى تقديم خدمات إجتماعية وكيف أن تقديمات الخدمات الإجتماعية تزيد من دعم المجتمع لحزب الله. أما الموضوع المركزي للمقالة فهو التوكيد على أن موظفي مؤسسات الخدمات الإجتماعية والصحية التابعة لحزب الله يعتبرون عملهم بمثابة فعل مقاومة أو " جهاد" والذي هو جزء لا يتجزأ من نضال حزب الله ضد إسرائيل والغرب.

هذه المقالة مبنية على أساس دراسة إختبارية لمنظمات غير حكومية(NGOs) توفر الخدمات الصحية والإجتماعية في لبنان. وقد إشتملت حصة لبنان من الدراسة على مقابلات لـ 30 موظفاً تابعين لـ 22 منظمة غير حكومية. 5 من هؤلاء الأفراد كانوا منتسبين صراحة لحزب الله وتم توظيفهم من قبل مؤسسات حزب الله غير الحكومية. هناك مشاركون آخرون في المقابلات عملوا مع منظمات غير حكومية سنية، مسيحية، درزية، وعلمانية وناقشوا مشاركتهم المنظماتية مع حزب الله و / أو دور حزب الله كلاعب في قطاع الـ NGOs اللبناني. وتم جمع المعلومات في لبنان في كانون أول 2005 وكانون الثاني 2006 من خلال مقابلات شبه هيكلية لفريق عمل الـ NGOs المقدمة للخدمات الصحية والإجتماعية للسكان ذوي المداخيل المتدنية.
أما معلومات المقابلات فتمت تكملتها بتحليل لمحتوى المنشورات والمواد الإعلانية المنتجة من قبل مؤسسات حزب الله الخدماتية والصحية غير الحكومية.

فاعل عسكري وسياسي

حزب الله لاعب سياسي هام في لبنان. أما خارج ذلك البلد فإن أكثر ما يُعروف به هذا الحزب هي أعماله العسكرية ضد إسرائيل، الذي بدأ حربه أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان عام 1982. أما حديثاً، فقد شملت أعمال حزب الله العسكرية

عملية 12 تموز 2006، أي خطف جنديين إسرائيليين بأمل تبادل معتقلين، الذي أعقبه قصف إسرائيلي مدة 33 يوماً للبنان وهجمات حزب الله الصاروخية ضد مدن إسرائيل الشمالية. في كل الأحوال، لم تكن إسرائيل هدف حزب الله الوحيد. فالولايات المتحدة صنفت حزب الله منظمة إر هابية بسبب هجوم 1983 الذي قتل فيه 241 من المارينز الأميركيين في بيروت، بالإضافة الى هجمات لاحقة ضد أهداف أميركية ويهودية. مع ذلك، هناك حكومات أخرى لا توافق على تصنيف حزب الله كمنظمة إرهابية وتقوم بجهد للتفريق بين أنشطة حزب الله العسكرية، السياسية، والخيرية. فحزب الله ليس ضمن لائحة المنظمات الإرهابية للإتحاد الأوروبي، رغم أن الإتحاد الأوروبي قد عبَّر عن هواجسه بخصوص هجمات حزب الله المختلفة على إسرائيل وألح على الحكومة اللبنانية ولاعبين إقليميين آخرين لإنهاء الهجمات المنطلقة من أراضي لبنان.

أما بما يتخطى دوره كمنظمة شبه عسكرية، يعتبرحزب الله حزباً سياسياً هاماً في لبنان، متولياً عدداً من المراكز والمناصب في البلديات والبرلمان اللبناني. إذ يسيطر حزب الله على كتلة برلمانية كبيرة مؤلفة من 14 نائباً، من المسلمين الشيعة بشكل رئيس ومن بعض المسيحيين. وحيث أن هناك ما مجموعه 128 مشرِّعاً في البرلمان اللبناني، فإن حجم هذه الكتلة تجعل من حزب الله لاعباً هاماً. كما أن لحزب الله وزيرين في حكومة فؤاد السنيورة الحالية: وزير الموارد المائية والكهربائية ووزير العمل. علاوة على ذلك، لحزب الله علاقات وثيقة مع وزراء حكوميين آخرين الذين ليسوا أعضاء رسميين في الحزب. إضافة لذلك، كل طائفة دينية لديها سلطة الفيتو على السياسات الوطنية، وحزب الله هو أحد الممسكين بسلطة الفيتو، ما يعطي الحزب تأثيراً هاماً.
بالإضافة الى قوته السياسية الوطنية، كسب حزب الله السيطرة على عدد من البلديات في جنوب لبنان بعد إنتخابات 2004 البلدية. إذ يسيطر حزب الله على 60 بالمئة من البلديات في جنوب لبنان وكان ناجحاً بالحصول على مناصب في ضاحية بيروت الجنوبية، الى جانب السيطرة على 27 من أصل 30 بلدية متنافس عليها في سهل البقاع. إن وجوداً محلياً ووطنياً كهذا يجعل من الصعب على مانحين دوليين وكيانات حكومية تجنب التفاعل مع حزب الله. في كل الأحوال، وبما يتجاوز أدواره السياسية والعسكرية، يشغل حزب الله شبكة معقدة للغاية من المقدمين للخدمات الصحية والإجتماعية والتي تتجاوز بكثير قدرة الدولة اللبنانية.

التطور السياسي والإجتماعي

في العام 1974، بدأ رجل الدين الشيعي موسى الصدر "حركة المحرومين"، والتي أصبحت تدعى "أمل"، الكلمة المختصرة لأفواج المقاومة الإسلامية. وتعتبر حركة أمل الحزب السياسي الأصلي الذي برز منه مؤسسي حزب الله. ففي العام 1982، أنشئ حزب الله رداً على الغزو الإسرائيلي للبنان وكان مدعوماً بوصول 1000 من رجال الحرس الثوري الإيراني، ما شكل جزءاً من مجهود آية الله الخميني لتصدير الثورة الإسلامية. ومن العام 1982 وحتى يومنا الحاضر، كان النشاط الأكثر وضوحاً لحزب الله هو مقاومته ضد الإحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. في كل الأحوال، وفي العام 2000، إنسحبت إسرائيل من المناطق التي إحتلتها، محتفظة بمزارع شبعا فقط، والتي لا تزال ملكيتها غير محددة. وتنبأ عدد من الباحثين بأن إنسحاب إسرائيل من لبنان سيضع نهاية لحزب الله كحزب، بما أنه كان لديه مقاومة عسكرية مندمجة بالكامل في هويته ومهمته.
في كل الأحوال، وبدلاً من الذوبان، برز حزب الله ليصبح لاعباً رئيساً في النظام السياسي اللبناني. أما إحدى العوامل التي ساعدت حزب الله على لعب دور أقوى سياسياً في المجتمع وتحويل نفسه من فاعل عسكري الى حزب سياسي فكانت تقديمات الخدمات الصحية والإجتماعية.

إن التاريخ الدقيق الذي بدأ فيه حزب الله بمساعدة المحتمع الشيعي الفقير في جنوب لبنان ومنطقة البقاع غير معروف بشكل واضح. ففي المقابلات التي أجريت، يصف فريق العمل الخيري لحزب الله تقديماتهم الخدمات الإجتماعيةعلى أنها كانت مبادرات فردية في البداية تطورت لاحقاً لتصبح شكلاً أكثر تفصيلاً، ما يجعل من الصعب تحديد البداية الدقيقة لهذه الخدمات. وفي مقابلة أخرى، أشارت جوديث بالمر، الخبيرة بشؤون حزب الله، الى أن تاريخ حزب الله الأولي ضبابي كفاية بحيث أن من الصعب معرفة ما إذا كان العمل العمل السياسي أم الإجتماعي هو الذي بدأ أولاً. في كل الأحوال، إن

شعب لبنان، وتحديداً المجتمع الشيعي، إعتبروا، وبسرعة، حزب الله بمثابة حركة لأجل الفقراء. وقد جعلت أنشطة المقاومة الأساسية، كمساعدة الناس العالقين في بيوتهم في البقاع خلال العاصفة الثلجية عام 1992، الناس يأخذون علماً بدور حزب الله.

الخدمات الصحية والإجتماعية

يقدم وسط بيروت التجاري وضاحيتها الجنوبية صورة متباينة حادة. فالضاحية الجنوبية،الجوار الشيعي بأغلبيته، تنتشر فيها الأسواق الصغيرة بدلاً من البارات والمقاهي الأنيقة، وترتدي النساء الحجاب بدلاً من التنانير القصيرة والأحذية العالية الكعب كما يُشاهد في قلب المدينة. أما الشوارع فتصطف على جوانبها الشقق المتواضعة، عدداً منها في حالة ترميم متواضعة ولا تزال تحمل علامات ثقوب كالجدري من جراء رصاصات الحرب الأهلية. أما مراكز حزب الله للضمان الإجتماعي فتبدو، وبشكل كبير، كأي مبنى آخر في ضاحية بيروت الجنوبية. بعد السير حول حفر المجاري العميقة في الشوارع المكتظة، تدخل الى مدخل الدرج المظلم لمبنى تنقصة الصفات المميزة كالمباني المجاورة له. في كل الأحوال، وبعد الدخول الى مكاتب حزب الله، فإنه يتم نقلك الى غرفة جلوس حديثة تماماً، مع عمال حاضرون مشغولون بأوراق طلبات القروض للزبائن يجلسون خلف صف طويل من النوافذ الزجاجية اللامعة.

لدى حزب الله نظام مؤسسات صحية وإجتماعية منظم بشدة (أنظر الرسم). فنظام الخدمة مكون من " الوحدة الإجتماعية"، " الوحدة الثقافية"، و "الوحدة الصحية الإسلامية"، والتي تشكل معاً شبكة مدروسة ومنفّذة بالتفصيل من مقدمي الخدمات، والتي يفيد منها، بشكل رئيس، شيعة لبنان. إن عدداً من مؤسسات خدمات حزب الله مسجلة قانوناً لدى الحكومة اللبنانية، وهو وضع يوفر حماية قانونية معينة ويسهل التعاون مع منظمات أخرى قد تقلق من إسم " حزب الله". وتتعاون مؤسات حزب غير الحكومية بحماسة مع منظمات محلية ودولية أخرى في جهودها لخدمة المجتمع.

رسم متبنى من نشرات وكتيبات خاصة بحزب الله ومقابلات مع فريق عمل في حزب الله (2004)

إن " الوحدة الإجتماعية عبارة عن مظلة لأربع مؤسسات، مؤسسة جهاد البناء، مؤسسة الشهيد، مؤسسة الجرحى، ولجنة إمداد الخميني. وقد أصبحت مؤسسة جهاد البناء واحدة من أهم المنظمات غير الحكومية في لبنان. فهذه المؤسسة مسؤولة عن بناء البنية التحتية وهي قامت في أوائل أعوام ما بعد الـ 2000، بإيصال المياه الى حوالي 45 بالمئة من سكان ضاحية بيروت الجنوبية. وعقب القصف الجوي الإسرائيلي للبنان صيف 2006، أصبح جهاد البناء حاجة أساسية وضرورية، وذلك بتقييمه الأضرار ودفع تعويضات إعادة البناء لسكان الجنوب وضاحية بيروت الجنوبية.

وبظل الوحدة الإجتماعية تقدم مؤسسة الشهيد المساعدات لأولئك الذين تأثروا عكسياً بنضال حزب الله المستمر ضد إسرائيل، وذلك بتقديم المساعدات المالية والدعم الإجتماعي والصحي لعائلات " الشهداء" الذين قتلوا في الحرب. إضافة لذلك، تمنح مؤسسة الجرحى مساعدات لمدنيين كانوا قد جُرحوا خلال الهجمات الإسرائيلية. وبسبب المساعدات التي توفرها هذه المؤسسات، فإن كل من أعضاء حزب الله والسكان الشيعة لديهم الثقة الكاملة بأن حزب الله سيلبي حاجات السكان عندما يصبحون ضحايا للصراع.

كما أن للوحدة الصحية الإسلامية التابعة لحزب الله وظيفة حيوية في تلبية حاجات الصحة العامة. فهي تُشغل 3 مستشفيات، 12 مركزاً صحياً، 20 مستوصفاً، 20 عيادة لطب الأسنان، و10 دوائر وقاية. وكانت الوحدة الصحية الإسلامية فعالة للغاية بحيث أنه طُلب منها تولي تشغيل عدد من المستشفيات الحكومية في جنوب لبنان وسهل البقاع. إذ تقدم وحدة الخدمات الصحية الرعاية الصحية للشيعة ذوي الدخل المتدني ولسكان آخرين من ذوي الدخل المتدني بكلفة

ضئية أو من دون كلفة. والهيئة الصحية الإسلامية منخرطة بعدد من المبادرات، كتقديم الضمان الصحي المجاني وتغطية صرف الدواء من خلال شبكة من الصيدليات المحلية.

وتقدم الوحدة الثقافية التابعة لحزب الله خدمة أساسية وضرورية أخرى للفقراء الشيعة. فالنظام المدرسي الرسمي للبنان يعتبر نظاماً متدني النوعية الى حد كبير، الملجأ الأخير لأفقر العائلات فقط الذين لا يستطيعون تحمل أعباء إرسال أطفالهم الى مدارس خاصة. ويشغِّل حزب الله عدداً من المدارس الإبتدائية والثانوية مقابل رسوم أقل بكثير من تلك التي لمعظم المدارس الخاصة الأخرى. إن مدارس حزب الله تخدم، بحسب ما يقال، حوالي 14000 طالباً . بالإضافة الى التعليم، يقدم حزب الله منحاً دراسية للطلاب ذوي الدخل المتدني، كما يقدم مساعدات مالية وكتب، وذلك بشرائه كميات كبيرة وبيعها بأسعار مخفضة؛ كما يشغِّل حزب الله أيضاً مكتبات لإعارة الكتب للطلاب. ففي بلد حيث التعليم الرسمي ضعيف وأحياناً تنقصه الكفاءة، فإن الخدمات التعليمية المثمنة بشدة لحزب الله تضع الحزب في محور الحياة اليومية للناس.

إن الكمية الكبيرة من الأموال التي ينفقها حزب الله على المساعدات الإجتماعية تقدم دليلاً إضافياً على أهميته. ففي أيلول 2006، أنفق حزب الله، بحسب ما قيل، 281 مليون دولار على الترميم والتعويضات عقب القصف الإسرائيلي للبنان عام 2006، مع تقارير تفيد بأن الحزب كان متحضراً لدفع 300 الى 400 مليون دولار تعويضاً للضحايا. إن واقع وجود مؤسسات خدمات حزب الله تحت السيطرة المباشرة لمجلس شورى الحزب وأنها تحتل موقعاً رفيعاً نسبياً في الهيكلية التراتبية للمنظمة قد يكون مؤشراً آخر على قيمة هذه المؤسسات (أنظر الرسم).

إن خدمات حزب الله الصحية والإجتماعية التي يفيد منها بشكل رئيس وأولي سكان لبنان الشيعة ليست خدمات معلنة للشعب اللبناني عموماً، ما عدا عقب هجوم إسرائيلي ما. ففي أوقات كهذه، تنال خدمات حزب الله مقداراً كبيراً من التغطية من قبل الإعلام؛ ثم ، وبعد بعض الوقت، يعود الحزب لتركيز خدماته على السكان الشيعة. لأن حزب الله هو حزب شيعي بالمبدأ وخدماته موجهة نحو الشيعة بشكل رئيس، فإن فهماً لتاريخ الشيعة والظلم الذي لحق بهم في لبنان يعتبر أمراً أساسياً.

منشأ الظلم

لا يستطيع المرء فهم حزب الله حقاً من دون معرفة التحديات التي واجهها المجتمع الشيعي المحروم في لبنان. وكما تشير جوديث بالمر هاريك بالقول:

لقد أخذ حزب الله موقع مساعدة الشيعة... هذا هو جوهرهم. فالشيعة معروف عنهم أنهم الأقل نيلاً للمعاملة الإيجابية والمرضية من بين المجموعات الأخرى في لبنان. إنهم الناس الذين عانوا، في الواقع، أكثر من غيرهم من إسرائيل في الجنوب وكانوا منسيين، تقريباً، في منطقة بعيدة عن الحضارة المدنية. إذن كان بالإمكان مساعدة هؤلاء الناس من قبل جميع المجموعات وهي لا تزال لا تقوم بذلك بالقدر الكافي.

هناك صراعان لوَّنا قسماً كبيراً من تاريخ لبنان الأخير: الحرب الأهلية من 1975 حتى 1991 والنزاع مع إسرائيل. ففي حين أنهما أثرا على قسم كبير من الشعب اللبناني بشكل أو بآخر، فإن هذين الصراعين ألحقا ضرراً أكبر بالظرف الإجتماعي والإقتصادي المفتقد للثبات أساساً. فجزئياً، ونتيجة للحرب الأهلية والنزاع مع إسرائيل، أضرَّت الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة بالظروف الإقتصادية للمجتمع الشيعي. فمنذ أقل من 50 عاماً مضت، كانت ضاحية بيروت الجنوبية أرضاً زراعية بغالبيتها. في كل الأحوال، فإن وضع العقارات الحقيقي الرخيص نسبياً للمنطقة وإمكانية الوصول غير المنظم إليها جعلها قدر العديد من المهاجرين الريفيين الآتين من الجنوب نتيجة الغزو الإسرائيلي. إضافة لذلك، خلقت الحرب الأهلية فصلاً دينياً متزايداً في بيروت، مع أحياء غالبا ما كان مسيطراً عليها من قبل ميليشيا طائفية. وفي مواجهة هذه الإنقسامات الجديدة، أصبحت الضاحية الجنوبية الوطن المنطقي لكثير من المهجَّرين الشيعة. وفي حين أن هدف حزب الله الأصلي كان إنهاء الإحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان، فإنه سرعان ما وجد نفسه يلعب دوراً أوسع في المجتمع اللبناني. وخلال الحرب الأهلية، قصفت القوات المسيحية ضاحية بيروت الجنوبية، تاركة ما يقدر بنصف مليون من

سكانها، معظمهم من الشيعة، يواجهون ظروفاً كارثية. وكان هناك حاجة لعمل طارئ، وجاءت خدمات حزب الله الإجتماعية والعامة المنظمة جيداً للإنقاذ.

وقد تسبب النمو السكاني في الضاحية الجنوبية والإقتصاد المتداعي في لبنان ككل بإستمرار تدهور ظروف الحياة في المنطقة. ففي العام 1993 قُدر تعداد سكان الضاحية الجنوبية بأنه يساوي 1 على 6 من سكان لبنان،كما أن دراسة عام 1997 لواحدة من المناطق الفقيرة من الضاحية، تحديداً، قدَّرت دخل الفرد بأنه 14 بالمئة لذلك الذي لمتوسط دخل المواطن اللبناني. في هذات السياق، بإمكان المرء أن يرى جاذبية حزب سمى نفسه " بطل الفلاحين والمزارعين، الكادحين والفقراء، المقموعين والمحرومين، العمال والمشردين." ففي المناطق المسحوقة ، كضاحية بيروت الجنوبية، وسهل البقاع الزراعي وجنوب لبنان، عملت تقديمات حزب الله للضمان الإجتماعي على أعمق الحاجات لبعض من أكثر المواطنين حرماناً في لبنان.

في حربه ضد إسرائيل، أخذ حزب الله على عاتقه المقاومة العسكرية وأنشطة العناية الصحية والخدمات الإجتماعية بحماسة وإخلاص متساويين. ففي العام 1996، هاجمت إسرائيل جنوب لبنان، متسببة بمقدار كبير من الأضرار في البنى التحتية. بعد هذا الهجوم، بدأ حزب الله عملية إعادة البناء. وتظهر إحصاءاته بأنه، في خلال شهرين، أعاد بناء 5000 منزل في 82 قرية، أصلح الطرقات والبنية التحتية، ودفع تعويضات لـ 2300 مزارع. ونتيجة لهذه النشاطات، كوفئ حزب الله بدعم أكبر من الشيعة الذين قدموا أصواتهم لأفراد يخوضون الإنتخابات البرلمانية. لاحقاً، في العام 2006، إحتلت الخدمات الصحية والإجتماعية لحزب الله دوراً مركزياً في القتال ضد إسرائيل وفي تداعيات الحرب. فبعد 34 يوماً من القصف الإسرائيلي، كان العمل الأول لحزب الله وقف جهوده العسكرية وتحويل كل طاقاته نحو الخدمات الإجتماعية وإعادة الإعمار. إذ وفر حزب الله الماء، الغذاء، والملجأ للناس المهجرين، ووعد أيضاً بدفع التعويضات للناس الذين دُمِّرت بيوتهم، مقدماً 12000 دولار للإيجار والمفروشات الى أن يتم إعادة بناء بيوتهم. هذه النشاطات زادت من الثقة بحزب الله، لكنها لا تشكل سوى جزءاً صغيراً من خدمات الحزب الإجتماعية.

في الوقت الذي يصر فيه حزب الله على القول بأن خدماته مفتوحة أمام كل شخص، فإن هذه الخدمات مكرسة، وبشكل رئيس، للفقراء الشيعة. ويعود ذلك في جزء منه الى الحقيقة بأنه، وببساطة، من العملي والمنطقي سياسياً أكثر بالنسبة لحزب الله في، بلد طائفي بالواقع، أن يشتغل في المجتمعات الشيعية. وكما يفسر ذلك أحد أفراد حزب الله بالقول:

إن الناس الذين يستفيدون ليسوا من الشيعة دائماً... فإذا كانت الأماكن التي يعيشون فيها مختلطة، فقد يكون لديك مسيحيين، قد يكون لديك سنة، ويكون لديك شيعة يستفيدون من الخدمات. ولأنه يُنظر إلينا على أننا حزب الله، فمن غير السهل علينا توفير الخدمات في منطقة تهيمن عليها طائفة أخرى، لأن ذلك قد يُؤخذ على أنه تعدي على طائفة أخرى.

ففي مجتمعات حيث الأكثرية شيعة، يقدم حزب الله خدمات لأفراد طوائف أخرى يعيشون في ذلك المجتمع أيضاً. أما رسمياً، فإن حزب الله يقدم المساعدات لأولئك المعتبرين جزءاً من " السكان المنتفضين" وتكزن تقديمات خدماته، تحديداً، ضمن المجتمعات المختلطة المتأثرة بالصراع مع إسرائيل. ويعطي أحد أفراد فريق عمل الخدمات الإجتماعية في حزب الله مثالاً على ذلك:

في الجنوب هناك مناطق مختلطة، والعلاقة مع الطوائف أو الأحزاب السياسية الأخرى جيدة جداً. على سبيل المثال، نحن في في قلب العمل في شبعا وكفر شوبا، على الرغم بأنهم سنه، وذلك بسبب الصراع مع إسرائيل على الحدود مع إسرائيل. فالسنة أو المسيحيين يتلقون الخدمات من حزب الله.

دعم المجتمع

بعد عقود من إنتهاء الحرب الأهلية، لا تزال الحكومة اللبنانية جامدة وخاملة، عاجزة عن توفير الحاجات الأساسية للسكان. في هذا الفراغ، برز حزب الله ليصبح واحداً من أهم مقدمي الخدمات وأكثرهم كفاءة. وكما يشير حمزة، لقد خلق تقديم الخدمات هذا إجماعاً صلباً ووسعت دائرة حماية ورعاية حزب الله، ما ولَّد إنتصارات إنتخابية كبرى بالنسبة للحزب.

كما سوف نناقش لاحقاً، تزيد تقديمات خدمات حزب الله، من دون شك، دعم المجتمع للمنظمة، يزيد من ذلك الغياب المباشر للخدمات من قبل الدولة اللبنانية. فخلال الحرب الأهلية وبعدها، تجاهلت الحكومة المركزية اللبنانية تقديم الخدمات. ولم تُجرَ الإنتخابات البلدية لمدة 35 عاماً، وتدهورت القدرات البشرية، المالية، والتقنية للبلديات، ماجعلها مؤسسات هياكل عظمية فحسب. وفي غياب تدخل الحكومة الوطنية، فإن هذا التآكل في القدرة جعل البلديات عاجزة عن الإنكباب على الحاجات الإجتماعية، ما أدى الى تفاقم الظروف الإجتماعية للناس. علاوة على ذلك، لطالما كانت المناطق الريفية في لبنان والضاحية الجنوبية مهملة من قبل الدولة اللبنانية لصالح إستراتيجيات التطوير المركزية لبيروت. ففي الوقت الذي توقفت فيه الحكومة اللبنانية، تقريباً، عن خدمات الضمان الإجتماعي، أصبح حزب الله أحد أكبر مقدمي الخدمات للبلد وأكثرهم وثوقاً.

كان لإهمال الحكومة تأثير واضح على المنظمات غير الحكومية والأحزاب السياسية. ويصف أحد العاملين في المنظمات غير الحكومية الوضع بوضوح:

هناك عدم إستقرار على الصعيدين المالي والأعمال. هذا الضعف مرتفع جداً في الحكومة. على سبيل المثال... إن ضعف المدارس العامة في المناطق الفقيرة دفع حزب الله الى إنشاء مدارس، وجعل أمل تنشأ مجموعة أخرى من المدارس... قد يكون هناك كمية بما يتعلق بالمدارس الرسمية، لكن ليس هناك نوعية.

كما ذكر سابقاً، تقدم المدارس المشغلة من قبل حزب الله بديلاً جذاباً لنظام المدارس الرسمية المتهدمة أو التعليم الخاص المكلف. ففي غياب الدولة اللبنانية، يقدم حزب الله مياه الشرب لضاحية بيروت الجنوبية، يجمع النفايات، ويقوم بإزالة الثلوج في سهل البقاع. وكما أشير سابقاً، تتحمل الهيئة الصحية الإسلامية المسؤولية عن عدد من المستشفيات الحكومية يعدما أثبتت الحكومة عن عجز مالي وتقني في إدارة هذه المرافق. وبسبب تقديمه الخدمات بنجاح، زاد حزب الله من شعبيته وأثبت كفاءته في الوقت الذي أضاء فيه على عدم فعالية الحكومة في آن معاً.
أوجدت خدمات الضمان الإجتماعي لحزب الله فارقاً هاماً في حياة الكثير من الشيعة المحرومين ، وكذلك في حياة بعض السنة والمسيحيين في لبنان. بالواقع، إن أفراد فريق العمل في حزب الله حريصون على الإشارة الى أنهم يقدمون الخدمات على أساس الحاجة وليس الطائفة. وقد دمج حزب الله خدماته الإجتنماعية في قاعدته الإنتخابية وإعتمد على السمعة الطيبة التي أنتجتها خدماته تلك. ونتيجة لذلك، " لم يكن مفاجئاً مشاهدة الكثير من الناس يكافئون حزب الله بالتصويت لمرشحيه ولحلفائه."

إن العاملين في المجال الخيري التابع لحزب الله واعون ومدركون، من دون شك، للفجوة التي يقومون بسدها وللدعم السياسي الذي حصلوا عليه للحزب. ففي حين أشار بعض مقدمي الخدمات الى أنهم سيطر عليهم شعور طاغ بالأمل بأن الدولة اللبنانية ستتحمل مسؤولياتها في النهاية، فإن معظمهم يعتقد بأن هذا الأمر ليس مرجحاً. وكما صرّح أحدهم قائلاً:

سوف نحتاج دوماً لهذا العمل، بصرف النظر عن مدى قوة الحكومة. نحن نؤمن بأن هذا المجتمع الإنساني، هذا البلد، لديه واجبات ومسؤوليات، ونحن أيضاً. فحتى لو وفرت الحكومة كل الحاجات، فإن الناس سيحتاجون بعضهم البعض دوماً. أنظروا الى إعصار كاترينا في الولايات المتحدة. كانت قدرات الحكومة ضعيفة، إذن من كان ينقل الجرحى؟ على الناس أن يتجمعوا حول بعضهم.

وفي حين أن غياب الحكومة فاقم من الحاجة للخدمات، فإن دافع العاملين في المجال الخيري لحزب الله سببه،و بشكل رئيس، إيمانهم بأنهم منخرطون في نشاط ديني وإنساني.
ويصف أحد أعضاء فريق العمل في حزب الله عملهم على أنه مجهود إنساني لمساعدة المحتاجين ومحاربة الفقر:

إن الحكومة اللبنانية لا تعمل على الصعيد الإجتماعي. فهم يقولون بأن البلد في أزمة إقتصادية وأنهم بحاجة لحل جميع القضايا الإقتصادية كالفساد وما الى ذلك، لذا دعوهم لا يتعاطوا مع هذه القضايا الإجتماعية... لقد بدأنا ننظر في كل مكان

لحل المشاكل الإجتماعية، الصحية، التعليمي، البطالة والفقر. إن أنظمة الدولة تحكمني، لكن ماذا لو أن الدولة ليست كاملة، أو لديها مشاكل؟ فهل أسمح لها بأن تمنعني عن أداء واجبي الإنساني؟ .. هذه الواجبات ملك للحزب، بالإضافة الى العمل السياسي... نحن نعتقد بأنه إذا لم يكن هناك من حزب أو حكومة، فإنه لا يزال علينا تقديم خدماتنا.

خدمات بصفتها رعائية

في غياب الدولة اللبنانية، أصبحت الخدمات الصحية والإجتماعية عنصراً أساسياً وحيوياً في العملية السياسية للبلاد، تحديداً كوسيلة رعاية سياسية. على سبيل المثال، في حين توفرالحكومة، بشكل مفترض، العناية الصحية الشاملة لمواطنيها، فإن المرء المتطلب لهذه العناية في مستشفى حكومي سيحتاج، عملياً، الى التقارب من مشرعه، أو مشرعها، الموجود في البرمان وسؤاله عن سرير في المستشفى كنوع من "الفضل والمعروف". هذا المعروف سيعاد دفعه ولاءً سياسياً من الفرد المريض والعائلة الممتدة وقت الإنتخاب. بعض الأحزاب السياسية، كأمل والحزب التقدمي الإشتراكي، كانت ناجحة، تحديداً، في إستخدام موارد الحكومة لتوفير حاجات ناخبيهم بشكل إنتقائي، وبذلك يكسبون ولاءهم.على سبيل المثال، إستخدم كل من نبيه بري، رئيس حركة أمل، ووليد جنبلاط، رئيس الحزب التقدمي الإشتراكي، موارد تعود لوكالة التطوير الحكومي ، مجلس الجنوب، ووزارة المهجرين لتقديم خدمات إجتماعية لناخبيهما. في كل الأحوال، لم يكن حزب الله جزءاً من أية مؤسسة حكومية حتى تعيينات 1992 النيابية. هذا الأمر جعل من الضروري بالنسبة لحزب الله إنشاء مؤسساته للخدمات الإجتماعية للتنافس مع أحزاب سياسية أخرى قادرة على إيصال الخدمات لداعميها من خلال أجهزة الدولة. وبشكل مثير للإهتمام، فإن منشوراً صادراً عن أحد مؤسسات حزب الله غير الحكومية يبرز خدمات حزب الله على أنها هدية للأفياء أيضاً، رغم أنه في هذه الحالة لم يكن " الأوفياء" المكافؤون من الناخبين بالضرورة، وإنما من المقاومين.

لقد كنا قادرين على أخذ الترخيص لمستشفى الشهيد صلاح غندور، الذي قدمته الهيئة الصحية الإسلامية على أنه عربون وفاء لأولئك الذين ثبتوا في أرضهم بعد الهجمات الإسرائيلية. نفس الشيئ ينطبق على مستشفى البتول في الهرمل، مدينة الشهداء. إن سعادة الحصول على هاتين الرخصتين تعادل سعادة النصر من جوانب عدة.

إن الإستخدام الإنتقائي لبيروقراطية الحكومة لكسب دعم المجتمع ينظر إليه بطريقة سيئة من قبل قسم كبير من الشعب اللبناني، الذين يمتعضون من طلب المعروف والخدمة من قادتهم السياسيين للحصول على الخدمات الأساسية. إن سمعة الفساد والمحاباة الموجودة في أوساط السياسيين البنانيين جعلت فريق عمل الخدمات الإجتماعية التابع لحزب الله فخوراً بأنه ظل خارج الحكومة لوقت طويل. إذ يعتقد هؤلاء العاملون بأن المجتمع، عموماً، لديه ثقة أكبر بحزب الله بسبب حقيقة تقديمه لخدمات واسعة ولأنه لم يسيئ إستخدام البيروقراطية الحكومية لخدمة داعميهم فقط. وكما يصف الأمر أحد العاملين في صفوف حزب الله:

لقد بدأنا المقاومة في العام 1982، ومن العام 1982 حتى 1993، لم نكن قادرين على إرسال جريحاً واحداً الى مستشفى للعلاج على حساب الحكومة ولم نهتم. عندما يكون لدى القيادة الأخلاقيات وتقدم الخدمات بالطريقة الصحيحة، فإنها ستكون محترمة ومحبوبة. أخيراً، ومع كل هذا الهدر والفساد، فإننا لا نريد شيئاً من الحكومة.

يتلقى حزب الله الدعم، بالتأكيد، من الشيعة ذوي الدخل المتدني الذين يستفيدون من خدماته. فالفقراء الشيعة يؤمنون بأن الحزب يهتم بهم وبأنه مستعد لتقديم الخدمات الضرورية لهم بطريقة غير منحازة. هذه الديناميكية زادت من الولاء للحزب و سددت الدين سياسياً، مع العدد المتزايد لأعضاء حزب الله في البرلمان، مجلس الوزراء، والسيطرة على البلديات.

إن عدد الذين يتلقون الخدمات من حزب الله غير واضح. إذ تزعم بعض التقارير بأن عدد المتلقين لهذه الخدمات هو أكثر من 20000، في حين أن تقاريراً أخرى تقدر العدد بحوالي 10 بالمئة من مجموع المواطنين اللبنانيين، أو حوالي 350000 شخص. إن حزب الله ليس حالة فريدة من حيث أنه مقدم خدمات لا يبغي الربح؛ فمع غياب الدولة اللبنانية، تقدم عدد من المنظمات غير الحكومية الخدمات. في كل الأحوال، إن الذي جعل مؤسسات حزب الله غير الحكومية أكثر بروزاً من غيرها هو مروحة الخدمات الواسعة التي يقدمها، الأسلوب الكفؤ الذي يعمل به، والموقع المحدد وجماعة الناخبين الذين يخدمهم.

إضافة لذلك، يقدم حزب الله مساعدات مالية بشكل قروض صغيرة كما يقدم منحاً لعائلات " الشهداء". إذ يساعد حزب الله بإحداث الدخل بتقديمه مساعدات عبارة عن دين للأعمال الصغيرة والعائلات، وتقديم خدمات توسيعية زراعية للمزارعين. فالحزب أخذ على عاتقه عدداً كبيراً من مشاريع البنى التحتية التي وفرت لشيعة سهل البقاع، جنوب لبنان، والضاحية الجنوبية من ذوي الدخل المتدني مجتمعات قابلة للحياة. كل هذه الأنشطة جعلت من حزب الله كياناً معروفاً جداً في الضمان الإجتماعي اللبناني.
إضافة الى تقديمه مروحة ضخمة من الخدمات، فإن حزب الله مشهور في مجتمع المنظمات غير الحكومية بسبب كونه كفؤاً بدرجة رفيعة. أما مصدر كفاءته فموجود في تنظيم مؤسساته غير الحكومية ودوافع موظفي الخدمات الإجتماعية لديه. فكثير منهم متطوعون وأصحاب إيمان قوي بأخلاقية عملهم. وكما سنناقش لاحقاً بتفصيل أكبر، فإن كل من الإيديولوجية الإسلامية والإيمان بأن تقديم الخدمات هو فعل مقاومة يساهم في الشعور الأخلاقي هذا. هذا الدافع المشترك في أوساط فريق الخمات الإجتماعية لحزب الله والمتطوعين يزيد من رغبتهم بتقديم الخدمات بشكل كفؤ وفعال. وكما يصف الأمر أحد العاملين من مؤسسة القرض التابعة لحزب الله:

إن أفراد مؤسستنا يشعرون بالحماسة إزاء عملهم لأنهم يساعدون الناس. إنهم سعداء بخدمة طبقات المجتمع الأدنى بدلاً من الأرفع، خاصة عن طريق تقديم القروض من دون فوائد.

إضافة لذلك،إن مؤسسات الخدمات الإجتماعية التابعة لحزب الله معروفة بالتفاعل مع المشاكل بسرعة أكبر من الحكومة. ويفسر الأمر أحد أفراد فريق العمل في حزب الله بأن مؤسساتهم غير الحكومية هي أكثر كفاءة وفاعلية من الحكومة بقوله:

إذا كان هناك من مشكلة في منطقة من لبنان، فإن الأمر يستلزم من الحكومة حوالي الشهر كي تتحرك ببيروقراطيتها. أما بالنسبة لنا، فإننا نتحرك في اليوم التالي تماماً. ففي إحدى القرى كان هناك 340 حالة من الإصابات بمرض التيفوئيد، لذا فقد أخذنا فرقنا الطبية، تجهيزاتنا والأدوية وذهبنا الى هناك، وبقينا هناك لأسبوع، أو 10 أيام حتى أنهينا الحالة. وفي العام الماضي، وفي قرية أخرى، كان هناك تيفوئيد، لكن كان هناك مشكلة سياسية، لأن البعض قال أن التيفوئيد جاء من اللحم، والبعض الآخر قال أن النفايات جرت وإختلطت بالماء. ولم تعلم الحكومة مصدر المرض. لذا وفي الوقت الذي كانت فيه الحكومة مشغولة بالتعامل مع المشكلة السياسية، كنا نحن على الأرض قد بدأنا العمل.

يصرِّح أعضاء فريق عمل حزب الله بأن التحضير والتخطيط المستمرين لمؤسساتهم غير الحكومية يسمح لهم بأن يكونوا أكثر كفاءة وبأن يتفاعلوا بسرعة أكبر تجاه الأزمات.. وقد فسر أعضاء في وحدات حزب الله الإجتماعية بأنهم يتحضرون بإستمرار لتهديدات جديدة، خاصة في نضالهم ضد إسرائيل:

بالنسبة للحرب، لدينا مهمات وواجبات مختلفة، نحن دائماً متحضرين ومستعدين للتحرك لمساعدة اللاجئين والجرحى. فالصليب الأحمر لا يستطيع دوماً الدخول الى بعض المناطق المتعرضة للقصف، لكن نحن نستطيع. فعندما يكون الناس مطوقين، فإن الصليب الأحمر لا يستطيع الوصول إليهم، لكن نحن بإمكاننا ذلك. فالناس الذين يعملون هنا لا يعملون لأجل

الراتب، أو المنصب، أو المنفعة الشخصية. إنه إلتزام داخلي قوي. نحن مدفوعون بحافز شديد. لذا فإن 10 منا ينتجون عملاً أكثر من 1000 من العاملين في مجال الخدمة المدنية.

يعتمد حزب الله في عمله على الناس الذين هم على تماس مباشر مع السكان. وكما يصف الأمر أحد العاملين في حزب الله:

لدينا شبكة ضمن الحزب أو مؤسسات حول الحزب، وهذه الشبكة تحدد الناس الذين يحتاجون الخدمات... فأي شخص يرسلونه كزبون، فإننا سندمجه، أو ندمجها، في البرنامج الذي لدينا.

هذه الشبكة الأساس في المجتمع المحلي تسمح لحزب الله تحديد موقع المحتاجين والتفاعل معهم بسرعة. وفي مقالتها في نيويورك تايمز، تصف صابرينا تافيرنيز رجلاً يتلقى بقالته من حزب الله من دون معرفة من الذي يحضرها. فعلائق حزب الله الوثيقة مع المجتمع من خلال أجهزة حزبه تتيح لمقدمي الخدمات إمتلاك معرفة داخلية عن أحوال وحاجات الفرد. مثال آخر عن هذه الأمر هو توزيع حزب الله للتعويضات بعد القصف الإسرائيلي لبيروت عام 2006. فجهاد البناء التابع لحزب الله زار كل قرية من القرى وقدم التعويضات على أساس توصيات الممثل الرسمي لحزب الله في تلك القرية. إذ قام ممثل حزب الله بتوجيه المهندسين والمسؤول المالي لجهاد البناء الى البيوت ومالكيها، ولاحقاً تلقى الناس التعويضات فورا، حتى من دون التعريف عن هوياتهم. في كل الأحوال، وفي حين أن هذا الإقتراب الوثيق من المجتمع قد يجعل تقديم الخدمات أكثر فعالية ، فإنه ، بالتأكيد، يضيئ على أهمية المحافظة على علاقة إيجابية مع قادة حزب الله السياسيين في المجتمع والبقاء على وفاق معهم.

في الوقت الذي يكون فيه على الناس السعي للحصول على معروف ما من السياسيين المحليين للوصول الى أنظمة الخدمات العامة اللبنانية المفروض عليها ضريبة تتجاوز ما هو ملائم أو حق أو عدل، يقدم حزب الله، بالمقارنة، إمكانية وصول سهلة لأولئك المحتاجين. هذا الإبتعاد والإنفصال من قيل الحكومة اللبنانية وفسادها زاد من ثقة المجتمع بحزب الله. فعمله أوجد ولاءً عميقاً في أوساط الشيعة تحديداً، الذين كانوا لسنوات الطبقة الدنيا في لبنان والذين شعورهم بالفخر والهوية متشابك مع حزب اللله. وبحسب ما يشير أحد العاملين في حزب الله بالقول:

نمتلك الموثوقية... وذلك بفعل ما نقول أننا سنفعله. كما أننا نعمل كثيراً على الأعضاء لدينا، نعمل على قدراتهم، وطاقاتهم القصوى. نحن منظمون جداً، وهناك ثقة بين أفرادنا. ليس لدينا الكثير من الصراعات الداخلية،رغم أنه لدينا مشاركة في عملية صنع القرار على كل المستويات.

وفي مسح أجري حول الخدمات الصحية، الإجتماعية والتعليمية، أشار 64 بالمئة من المشاركين الشيعة الى أن حزب الله قد قام بتقديم معظم الخدمات التي يقدمها أي كيان مؤسساتي في لبنان. وفي نفس المسح، أشار 72 بالمئة من الفقراء الى أن خياراتهم السياسية هي مع حزب الله. فبما يخص تداعيات القتال في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان صيف 2007، إعترف قادة إسلاميون فلسطينيون بتآلفهم مع حزب الله أيضاً. وفي حين أنهم يؤكدون على عدم إصطفافهم مع أي حزب سياسي لبناني، فإنهم إعترفوا بأن حزب الله هو الأكثر شعبية، ليس فقط لأن الحزب يقاتل إسرائيل، وإنما لأنه يقدم الكمية الأكبر من المساعدات للفلسطينيين في المخيمات. هذه المساعدات لا تتضمن الخدمات الصحية والإجتناعية فقط، وإنما تتضمن حتى توفير الأمن الداخلي في بعض المخيمات.

العمل الخيري كفعل مقاومة

في جهود حزب الله المنكبة على التأثيرات السلبية للفقر، هناك رسالة مقاومة. فبالإضافة الى الدوافع الإنسانية، يؤمن بعض العاملين في حزب الله بأن دور وحدات الخدمات الإجتناعية هو بناء" مجتمع مقاوم"، معياره جهوزية هذا المجتمع لمواجهة إسرائيل في الحرب. هذا ملحوظ في شهادة في منشور صادرة عن أحد أعضاء فريق مؤسسة غير حكومية لحزب الله:

كنت سعيداً بأن أكون جزءاً من الهيئة الصحية الإسلامية، التي قدمت الخدمات الصحية بعد إندحار العدو الصهيوني. فلستة أسابيع كنا نقدم التشخيصات الطبية والدواء مجاناً لناسنا الذين بقوا في أرضهم.

وكما يشير فواز، إن شعبية حزب الله ليست بسبب تلبيته الحاجات الحادة للمجتمع فقط، كتوفير مياه الشرب وجمع النفايات، وإنما أيضاً بسبب نجاحه في تبني خطاب يصادق على شعور الإحباط الشيعي والرغبة بوجود عدالة إجتماعية. وكعمل اللاهوتيين التحرريين في أجزاء عديدة من العالم، فقد إشتمل قسم كبير من عمل حزب الله على جعل الفقر قضية دينية ومن ثم ربطها بالنضال السياسي والعسكري. وكما يصرِّح سعد غريِّب ، " ليس الفقر بذاته هو الذي يحدد ما إذا كان المرء مضطهداً، وإنما الحرمان والإستغلال. فالفقر يكون مرادفاً للإضطهاد فقط عندما يكون نتيجة تمييز، إهمال، وسوء معاملة الدولة. وإلا فإن الفقر هو مجرد توصيف إجتماعي.

ينجز حزب الله أهدافه السياسية بالإضاءة على إهمال الحكومة اللبنانية للمجتمع الشيعي ومن ثم التنافس للحصول على منصب سياسي. وينجز حزب الله أهدافه العسكرية بإستثماره واقع تأثر المجتمع الشيعي بشكل متفاوت بسبب مواجهة حزب الله مع إسرائيل في الجنوب اللبناني وإبراز المقاومة ضد إسرائيل على أنها واجب ديني. وفي حين أن تصنيف الشيعة كمضطهدين ليس ناشئاً فقط من القرآن وإنما منذ الإحتلال الإسرائيلي الماضي للجنوب اللبناني، فإن حزب الله قام بحبك وخلط العدالة الإجتماعية، النضال السياسي والعسكري، والتقوى الدينية، بمهارة فائقة بحيث يصبح من الصعب عزل وفصل دوافع دعم المجتمع من الصعب.
بمعزل عن مهمات حزب الله السياسية والعسكرية، فإن مؤسساته الخيرية سياسية بشكل علني وصريح وتعتبر نفسها جزءاً من حركة المقاومة. فمؤسسات حزب الله غير الحكومية تعلن صراحة بأنها تخدم المقاومة، ويصف فواز كيف تعتبر مؤسسات حزب الله غير الحكومية مهماتها بمثابة مهمات تكميلية وأساسية لمقاومة حزب الله العسكرية وتنشر صور الشهداء وقادة الحزب على جدرانها. ويستشهد فواز بكلام لمدير مؤسسة غير حكومية لحزب الله هو الحاج قاسم عليق:

إن المجتمع المقاوم هو رؤيتنا. إنها مهمةلبناء مجتمع سيرفض الإضطهاد ويقاتل لأجل حقوقه. أما كل الأمور المتبقية... توفير المياه، جمع النفايات، التدريب الزراعي – ما هي إلا إستراتيجية عمل.

إن ثقافة المقاومة هذه واضحة في المنشورات الصادرة عن مؤسسات الخدمات الصحية غير الحكومية لحزب الله. إذ يستشهد منشور للهيئة الصحية الإسلامية التابعة لحزب الله بكلام لوزير الصحة كرم كرم يقول فيه:

إن الخدمات المقدمة من قبل الهيئة الصحية الإسلامية تعزز جهود المقاتلين *البطولية وتقلل من قلقهم بشأن من الذي سيعتني بأولئك الذين يدعمونهم. هذه الشبكة هي درع واقي يحمي المقاتل المقاوم ويضمن أولئك المحتاجين ويحمي الذين يقاتلون لأجل العزة والكرامة، لأجل البلد ولأجل السيادة.*

أما بالنسبة لحزب الله، فإن عمل مقدمي الخدمات الصحية والإجتماعية في مؤسساته يتوازى ومقاومة مقاتليه في المعركة؛ فهذا العمل سياسي بجوهره. وقد قال أحد فريق العمل في حزب الله التالي:

إن الطبيب هو مقاوم. مساعدة المرضى ومحاربة الميكروبات والأمراض الأخرى هي مقاومة، وعندما تقدِّم خدمات إجتماعية فإنك تنقذ طفلاً من الجهل أو الذهاب للسجن.

وبنفس الطريقة ينظر أحد المتطوعين الى عملهم، مستشهداً بوجهات نظر منشورات الهيئة الصحية الإسلامية:

وجدت بالهيئه الصحية الإسلامية ، التي تشفي الجرحى من مجاهدي المقاومة الإسلامية من جهة وتساعد المضطهدين في مجتمعنا من جهة أخرى، مكاناً حيث يمكنني مساعدة الناس والتقليل من معاناتهم وبناء مجتمع صحي.

إن وجهة النظر هذه القائلة بأن تقديم خدمات مؤسسات غير حكومية هو مكمل لمقاومة حزب الله العسكرية هي أساسية وحيوية لفهم أهمية الخدمات الإجتماعية بالنسبة للحزب. ويعتبر حزب الله أولئك المنخرطين في مجال تقديم الخدمات الإجتماعية بأنهم جزء من الجهاد. وبذلك يفتح تقديم الخدمات الإجتماعية الباب أمام المرء ليكون جزءاً من الوحدات السياسية أو العسكرية للحزب.

العمل الخيري كتجنيد؟

هناك باحثون يؤكدون على أن التقديمات الصحية والإجتماعية لحزب الله هي مجرد جبهة لرفع التمويل لأنشطة العنف. في كل الأحوال، إن المجال الواسع للخدمات التي يقدمها حزب الله، كمية الموارد المكرسة لهذه التقديمات الإجتماعية، والطبيعة المعقدة تكنولوجياً لقسم كبير من عمله يجعل هذا الأمر يبدو غير مرجح الى حد كبير، رغم أن المدى الذي يستخدم فيه حزب الله تقديماته الإجتماعي لتجنيد مسلحين يبدو غير واضح. فالأحداث، كإستعراض يوم عاشوراء الذي يقيمه حزب الله، الذي يمكن فيه للمرء أن يرى، وبسهولة، صفوفاً من الأطفال التلامذة الإبتدائيين يشاركون في مسيرة منظمة مرتدين ثياب مسلحي حزب الله، هذه الأحداث ترفع السؤال، بالتأكيد، حول الكيفية التي قد يستخدم بها جماعة مدارس حزب الله وفرق الكشافة تأثيرهم لتحضير الأطفال ليكونوا جزءاً من " المجتمع المقاوم."

ربما يكون الأمر الهام بشكل مساو هو المدى الذي قد يكون فيه العاملون في مجال الخدمات الإجتماعية – الصحية مجندين للإنخراط بالأنشطة الأكثر عنفاً للمنظمة. وكما وصفنا سابقاً، إن العاملين ضمن مؤسسات حزب الله غير الحكومية يثمنون، بالتأكيد، الدور الذي يلعبونه في النضال ضد إسرائيل ويعتبرون أن جهودهم بمثابة جزء لا يتجزأ من المقاومة. هذه النظام القيم المتقاسم بين الجميع قد يعرض الى أن موظفي ومتطوعي المؤسسة غير الحكومية سيكونوا مستعدين للإنخراط في نشاطات عنفية كذلك الأمر، بما أنه يُنظر الى هذه الأعمال على أنها تخدم الهدف النهائي نفسه، أي بناء مجتمع مقاوم. إذ هناك منشور يحي ذكرى موظف سابق لمؤسسة غير حكومية تابعة لحزب الله كيف أن سائق سيارة إسعاف قد تم تدريبه لاحقاً ليكون مقاتلاً ويصبح جندياً في جنوب لبنان:

لقد دفعه إيمانه المبكر للتضحية والإنخراط في العمل الجهادي عن طريق زياراته المتواترة لمراكز الهيئة الصحية الإسلامية. لقد إستخدم سيارة والده لنقل ومساعدة الجرحى في وسط الحرب. ثم بدأ يتطلع صوب ميادين المعارك في الجنوب ليصبح مقاتلاً.

بالرغم من هذا المثال، لا يزال التواتر بشأن تطوع فريق عمل المنظات غير الحكومية في العمل العسكري و تجنيد زبائن الخدمات الإجتماعية غير واضح. وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فإن عملية التجنيد مسألة في غاية السرية.
في كل الأحوال، يعتقد عدد من الباحثين بأن الإقصاء ومستوى العيش المتدني للمجتمع الشيعي يتيحان المجال أمام مؤسسات أصولية للتحرك والتجنيد. هذا يفتح الباب للتفكر والتأمل بشأن دور تقديمات الخدمات الإجتماعية في عملية تجنيد المسلحين. وفي الوقت الذي تشير فيه هاريك الى أن تقديم الخدمات الإجتماعية للفئة الأكثر فقراً من الشعب في بيروت قد جذبت الفقراء للدخول في الحزب، فإنه من غير الواضح ما إذا كان هذا الإنجذاب هو للجناح العسكري للحزب.

الإستنتاج

أكسبت خدمات حزب الله الإجتماعية الفعالة الحزب الولاء في أوساط الفقراء الشيعة. فحزب الله زاد من خلال تقديمه هذه الخدمات، من الأصوات المؤيدة له، من حصته في السلطة في الحكومة اللبنانية، وربما من عدد المسلحين لأجل قضيته. وفي حين أننا لا نستطيع الإثبات بأن هذه الخدمات كانت الدوافع التي تقف وراء التقديمات الإجتماعية لحزب الله، فإن النتائج واضحة. في كل الأحوال، تشرح هاريك بأن مؤسسات حزب الله غير الحكومية تقصي عدداً من أولئك

المحتاجين للخدمات لكنهم لا يريدون تحمل الإلتزام الديني للمنظمة. وبذلك، يقصي بعض الناس أنفسهم عن المشاركة في مؤسسات مرتبطة علناً بحزب الله والتي تعتبر إلتزاماتها الدينية متزمتة.في كل الأحوال، وبالنسبة للذين هم في حاجة ملحة، فإن إختيارهم بإقصاء أنفسهم عن الخدمات قد يكون إمتيازاً وإستثناءً، لا يستطيع كثيرون، ببساطة، تحمله. ففي عدد من المجتمعات، أصبح حزب الله المقدم الأوحد للخدمات. فكفاءته العالية المستوى بالإضافة الى غياب الدولة زاد من سيطرة الحزب على مناطق معينة، الى الحد الذي أصبح فيه من الصعب على مؤسسات خدمات أخرى العمل من دون موافقة حزب الله. فحزب الله يشرف ويتحكم بكل المساعدات للناس في الجنوب اللبناني وفي ضاحية بيروت الجنوبية. هذا الوضع يجعل من الصعب على المنظمات غير الحكومية الدولية تقديم المساعدات الإنسانية، تحديداً إذا ما كانت دول هذه المنظمات قد سمَّت وصنفت حزب الله كمنظمة إرهابية.

بسبب دور حزب الله كمقدم للخدمات، فإن سيطرته على موارد الوكالات الإنسانية الأخرى، والحاجة للعودة لشخص دال على شخص آخر من قادة حزب اله لتلقي الخدمات، فإن الفقراء في مجتمع يهيمن عليه حزب الله أمور يبرهنون عن ولائهم للحزب، سواء قلبياً أم لا. لقد زادت خدمات حزب الله الإجتماعية من معايير العيش لكثيرمن الفقراء الشيعة. هذا التأثير الإيجابي ولَّد، من دون شك، ولاء وإخلاصاً حقيقيين ودعماً سياسياً مستمراً. في كل الأحوال، عندما تكون الحاجات الإنسانية مرتفعة وهناك حزب واحد فقط تستطيع الذهاب إليه للحصول على الخدمات، فإن المتلقين لهذه الخدمات قد يكونوا مكرهين، بشكل مبهم يصعب الكشف عنه، على إظهار ولائهم لحزب الله بطرق تتخطى التصويت يوم الإنتخاب.